بين شاكر وقطب :

لا تسبوا أصحابي

للأستاذ محمد رجب البيومي

للأستاذ محمود محمد شاكر منزلة كبيرة لدى ، فأنا أعهده كاتبا قوى الأسلوب ، رصين العبارة ، وأعرفه أبيا مخلصا يتدفق غيرة على الإسلام ، وتعصبا لأفذاذه الأبطال ، لذلك أقبل على قراءة ما يدبجه يراعه المؤمن في شوق واهتمام . وقد طالعت أخيرا ما كتبه بمجلة (المسلمون — العدد الثالث ص ٣٨ جمادى الأولى سنة ١٣٧١) تحت عنوان لا تسبوا أصحابي ، فوجدت المجال واسعا للخلاف بيني وبينه ، ولم أشأ أن أطوى ما دار بخلدي عن القراء ، فرأيت أن أناقش الكاتب الكبير فيما سطره راجيا أن يحق الله الحق بكلمته ، فالحق وحده هدف الكرام الكاتبين ، وفي طليعتهم الأستاذ الجليل

ولعل من الأوفق أن أبدأ بتلخيص الفكرة التي يدور حولها مقال الأستاذ شاكر ، فأعلن أن الكاتب الفاضل ينحي باللائمة على المجاهد الداعية الأستاذ سيد قطب — وإن لم يصرح باسمه — إذ تعرض في كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » إلى أناس عدهم الأستاذ شاكر من أفاضل الصحابة ، وقد خصهم صاحب الكتاب بما لا يليق في مذهب الأستاذ شاكر من النقد والتجريح ، وهو بذلك يخالف ما اجتمع عليه الرأي السائد من تقديس أصحاب الرسول « إذ لا سبيل لأحد من أهل الأرض ما ضيهم وحاضرهم أن يلحق أقل أصحاب محمد ، مهما جهد في عبادته ومهما تورع في دينه ، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سره وعلانيته ، كما قال الأستاذ الجليل

وقد بدأ الأستاذ شاكر مقاله بحديث الرسول « لا تسبوا أصحابي ، فو الذي نفسي بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » واندفع في سياق منبري يسرد الأدلة الخطابية ، ويستثير النوازع العاطفية ، ويستشهد بقول الرسول « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » كما ذكر حديثا يدور حول هذا المعنى ، محاولا أن يؤيد بذلك كله دعواه الخطيرة إلى تقديس أناس بعدوا عن الحق فيما سجله عليهم التاريخ من أعمال . ومما نحمد الله عليه أن الحق — في هذه الناحية — واضح أبلج لا يحتاج إلى برهان

وقبل أن نعرض ما ذكره الأستاذ قطب في شأن معاوية وأصحابه ، نذكر أن الأستاذ شاكر قد أثار هذه العاصفة لحجته الوحيدة ، أن كل صحابي رأى الرسول وسمع منه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءه أو يظهر أغلاطه ، « فإذا أخطأ أحدهم فليس يحل لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن عليهم » — كما ذكر الكاتب

وحسما للنزاع من أقرب طرقه ، نبدأ بتحديد معنى الصحابي ، وهو — في أبسط حدوده — يطلق على كل إنسان حصلت له رؤية الرسول أو مجالسته ، فجميع من سعدوا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم في حياته بعد الإسلام صحابة يشرفون بهذه الصفة المباركة ، حتى عبد الله بن أبي رأس النفاق بالمدينة ، فقد قال الرسول لمن هم بقتله : « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فعبد الله من أصحاب محمد كما ينطق الحديث ، فليت شعري أينطبق الحديث القائل لا تسبوا أصحابي على جميع من سعد بالصحبة ، أم يخص من باعوا أرواحهم وأموالهم لله من المؤمنين الصادقين ؟ لابد أن تكون الطائفة الأخيرة هي المقصودة دون أدنى تردد أو نزاع ، فكل من تمسك بأخلاق الإسلام من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروءته وصدقه فهو موضع التجلة والتبجيل ، ولا يجوز لمسلم يدين بالإسلام أن ينتقصه في شيء ، وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد لأن الناس سواسية أمام الإسلام ، ولا فضل لعربي على أعجمي بغير تقواه ، والإسلام لا يقدس غير البررة المخلصين

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة ، ففيهم من أسلم في فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول وقطع السنوات المتتابعة في الجهاد والجلاد ، وفيهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف مصلت على رأسه ، وفيهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل ، وفيهم من تقاعس ولم يبذل شيئاً من دمه وماله ، ومن الظلم البين أن نرتفع بهؤلاء

جميعاً إلى منزلة واحدة ، بل على التساوي أن يهيء لكل إنسان منزلته وفق ما أسلف من أعمال « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » ٩٥ النساء

وإذا كان الأستاذ شاكر يرى أنه لا يجوز لأحد من الناس أو من الصحابة أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن فى المخطئين ، فماذا يفعل فى الصحابة إذ أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن ، فخطأ بعضهم بعضاً ، وطعن فريق منهم على فريق آخر بتأويله ، أفيكونون بذلك قد خالفوا الحديث النبوى كما فهمه الأستاذ شاكر .. أم عرفوا أن الصحبة وحدها لا تعصم من النقد والملام ؟

لقد اتضح بجلاء أن الحديث الذى عنون به الأستاذ مقاله لا ينطبق على جميع من سمد بالصحبة ، بل يختص الطائفة الفاضلة التى لم تترك أخلاق القرآن فى موقف ، أو تنبذ روح النبوة فى صنيع ، وجميع من سار على النهج القويم كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود موضع القدوة والاحتذاء من المسلمين ، وحرام على كل مؤمن أن يحوم على أحد منهم بطعن أو تجريح ، أما الذين تأخر بهم الركب عن اللحاق بالإسلام فى مشرق شمسه ، فيجب أن ننظر إلى صحف أعمالهم ومواقفهم فى الحياة ثم نحكم عليها فى ضوء القرآن والنبوة ، وهذا ما فعله الأستاذ سيد قطب ، فقد نظر إلى أعمال معاوية وطائفة من بنى أمية نظرة إسلامية صادقة ، فوجد خليفة المسلمين قد بعد عن روح الإسلام فى أكثر أعماله ، وساعده فى هذا السبيل فريق باع آخرته بدنياه ، فرأى أن يقول كلمة الحق فى أناس تجاوزوا حدود الله فى أعمالهم ، والأستاذ قطب لم يرد بكتابه أن يكون مؤرخاً راوياً ، فالرسالة التى يضطلع بها الآن أعظم من أن تنحصر فى حدود التاريخ ، ولكنه ينادى بالرجوع إلى أحكام القرآن ، وهدى النبوة ، وتعاليم الإسلام ، وقد عرف أن الخلافة الإسلامية قد فقدت معناها الدينى بعد مصرع على ، وجاء من الخلفاء من أحالها إلى ملك عضوض ، تبعد عنه روح الإسلام فى أكثر نواحيه ، وقد ظن كثير من الناس أن هؤلاء الخلفاء الرسميين من أمثال معاوية يمثلون الخلافة الدينية التى تتقيد بالقرآن وتهتدى بالسماء ، ورأوا من جرائرهم الخلقية ، وترفهم المقيت ، ولهوهم الماجن ما يبغضهم فى الخلافة والإسلام ، فقام الأستاذ سيد قطب يدافع عن دينه ، ويبين أن الإسلام لا يعترف بخلافة بعد على ، وقد نطق بالحق المؤيد بالتاريخ حين أعلن أن معاوية أول خليفة تحلل من قيود الإسلام ، أفنقول له بعد ذلك لقد تهجمت على أصحاب الرسول وخالفت هدى النبوة ، أم يريد الأستاذ شاكر أن يفهم الناس أن معاوية وأشياعه يمثلون الإسلام بما ارتكبوه من رشوة وخداع ومآلأة ؟ لو أن الأمر كذلك لبعد الناس عن الإسلام ، ولبرىء المسلمون من دين يبيح لخلفائه الخديعة والمكر والإرهاب وإقامة القصور واحتكار الأموال والضياع ؟

ولقد كان الأحرى بالأستاذ شاكر أن ينقد ما ذكره الأستاذ قطب عن معاوية نقداً تاريخيا فيبين أن الوقائع التى ذكرها فى كتابه الخالد غير صحيحة ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك ، إذ أن الأستاذ قطب قد نقل وقائعه عن كتب التاريخ ولم يخترعها من عنده اختراعاً ، وهى — رغم ثورة الأستاذ شاكر — معروفة لدى الكبير والصغير

فمن ذا الذى ينكر أن معاوية حين صير الخلافة ملكاً عضوضاً فى بنى أمية لم يكن ذلك من وحى الإسلام، إنما كان من وحى الجاهلية

ومن الذى ينكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها ! وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح واللابسات ! ! وهذا باستثناء عمر بن عبد العزيز الذى أحاطه الأستاذ قطب فى كتابه بسياج من المحبة والإجلال ، وجعل عهده بقية من عهود الخلافة الراشدة ، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق ، وقد بسط الكلام عن هذا الخليفة العظيم فى أربع صفحات طوال ! !

ومن الذى ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؟

ومن الذى ينكر أن معاوية قد أقصى العنصر الأخلاقى فى صراعه مع على وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك إقصاء كاملا ، لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، وقد سار فى سياسة المال سيرة غير عادلة ، فجعله للرشوة واللهى وشراء الضمائر فى البيعة ليزيد

بجانب مطالب الدولة والفتوح بطبيعة الحال

هذه وأمثالها أمور مسلمة في التاريخ لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال . ونحن نعجب كثيرا حين نجده في مقاله يلبس ثوب الوعظ والإرشاد فيقول : يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . أفهذه الآيات وأمثالها يستطيع الأستاذ شاكر أن يسكت لسان التاريخ

كنا ننتظر من الأستاذ أن ينقد هذه الحوادث التاريخية نقداً موضوعيا يحدد على ضوئه موقف معاوية من تعاليم الإسلام ! ولكن الأستاذ لا يستطيع أن يأتي لمعاوية بتاريخ جديد فذهب يدافع عنه من باب آخر ، فنقل عدة روايات تدل على أنه حسن الصلاة ! ! وأنه أوتر بواحدة ! فقال ابن عباس إنه فقيه ! ! وأن الرسول قد قال : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب ! ! وسارق هذا المضمار خطوات أتعبته كثيرا . والعجيب أنه يجمل ما ذكره الأستاذ قطب عن تاريخ معاوية روايات متلقفة من أطراف الكتب ! وهي ما تنطق به جميع كتب التاريخ ، أما ما ذكره الآن من فضائل معاوية فليس من قبيل الروايات المصنوعة ، وإن اصطياد من مجمع الزوائد وأمثاله من مراجع الأستاذ ، أفهذا منطق يقنع الباحثين !

وقد تعجبت كثيرا وأنا أقرأ قول الأستاذ شاكر عن قطب « إن كان يعلم أنه أحسن نظرا ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولى يزيد بن أبي سفيان وهو من بني أمية ، وأنه أنفذ بصرا من عمر حين ولى معاوية فهو ما علم ! » كأن تولية عمر لمعاوية كافية لأن تمحو أخطاءه فلا يأخذه مؤرخ بملام ! ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر فولاه أعمال دمشق ، ولكنه قلب الجن للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان فلم تنفعه تزكية الفاروق في شيء ، وعمر رضي الله عنه لا يعلم الغيب حتى تكون تزكيته لإنسان ما في عهده ممتدة إلى جميع أعماله مدى الحياة !

هذا هو معاوية ، أما أبو سفيان وهند زوجه وعمرو ابن العاص فلا أعلم أن الأستاذ قطب قد تجاوز الحق فيما كتب عنهم من تاريخ ! ! فجميع المسلمين يعرفون أن أبا سفيان حارب الإسلام حربا لا هوادة فيها ، ولم يدخل في حظيرته إلا بعد أن تقررت غلبة الإسلام ! وأن زوجه هند قد لغت في الدم حين أخذت كبد حمزة بين فكيها ، ولا كنها لتأكلها فلم تستطع ، وأنها قالت من زوجها حين أسلم : اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، قبح من طليعة قوم ، هلا قاتلتم ودافعتم عن أموالكم؟ ثم أسلمت بعد ذلك أيضاً ! ! وأن ابن العاص قد عاون معاوية في خصامه مع علي جريا وراء مآرب يدخرها لنفسه دون نظر إلى صالح الإسلام والمسلمين ! ! هذا كله ما ذكرته كتب التاريخ ، أفيلام الأستاذ قطب إذا ذكره في معرض الدفاع عن الإسلام وتبرئته من آثام المذنبين ، أم يريد الأستاذ شاكر أن يؤخذ الإسلام بجرم أبنائه ومدعيه ، حين يحتضن أناساً لم يتمسكوا بأهدابه وقواعده ، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا في ذلك الشأن

ولقد تعمدت أن أكون واضحاً صريحاً حين تكلمت عن المراد « بالصحابي » فتحدثت عما يفهم من مادة الكلمة دون نظر إلى ما دار حولها من اختلاف لدى الأصوليين ، إذ هم يذكرون عدة تعاريف تتقارب وتتباعد دون أن تلتقي في ناحية واحدة ، ولو تمسك كل إنسان بتعريف معين لتضارب القول ، واتسعت شقة الخلاف ! على أن الصحبة بمدلولها اللغوي تدل على الملازمة ، فصاحبك هو الذي يطيل المكث معك أكثر من سواه ، وصحابة الرسول بالمعنى الشرعي واللغوي معاً هم أكثر الناس ملازمة له ، وليس منهم معاوية وأبوه وأمه ونجله على أي حال ، ولن أطيل هنا القول فيما ذكره المحدثون في قول الرسول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم — وقد سبق في صدر هذا المقال — إذ أن مفسري الحديث قد أجمعوا على أن العبرة بالمجموع لا بالجميع ، فقد يوجد في القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم وإذن فليس للأستاذ شاكر أن يتمسك — بهذا وأمثاله — كدليل يستند إليه في دعواه ، وهو من البداهة بمكان لا يحتمل الترديد والإسهاب

إن من القسوة العنيفة أن يقول قائل عن الأستاذ سيد قطب إنه قد بعد في كتابه عن منهج الإسلام ، وهو الداعية البصير الذي تشرب روح الإسلام ، وفهم دقائق التشريع ، ورسم خطوطاً واضحة يترسمها الشباب المتوثب للنهوض والعزة في ظلال الدين الحنيف ، وكان بجهاده الميمون رائد جيل ، ومنقذ نفوس ، وداعية إصلاح

أعلمت أشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشئ أنفساً وعقولا

محمد رجب البيومي